



الجزء الثاني عشر من المجلد الثالث

ذو الحجة سنة ١٣٢٦ موافق يناير (كانون ثاني) سنة ١٩٠٨

الحافظة والحفاظ

أي نعمة ينالها المرء أعظم من أن نعي ذاكرته كل ما تريد وعيه وتدخره إلى ساعة حاجة للانتفاع به. الحافظة من العوامل المؤثرة في ترقية الأفراد والجماعات وبدونها يصعب الوصول إلى إدراك الحقائق وتمحيصها لانا إذا لم نستعن في كل مطلب من مطالب الحياة بتجارب من سبقونا ونحفظ المأثور عنهم لنسج على منواله كنا أشبه بمن يريد أن يبني له يوم بناء وظلت العلوم والصناعات والآداب في طفولتها الأولى تجري على نظام مضطرب إذ يكون كل امرئ، وما يختار.

والذاكرة والحافظة حاسة يحفظ بها الذهن على صورة دائمة أموراً مضت وتأثرت وقعت فهي بذلك كما قال مونتيز الفيلسوف (1532 — 1592) وعاء العلم وصوان الحكمة. وقال لارشفوكلد الكاتب (1615 — 1680) جميع الناس يشكون من حالظتهم وما قط شكا أحد من عقله. وقال آخر: إن الذكاء بدون حافظة أشد بغيربال لا يكاد يمسك ما نضعه فيه. وقال أحدهم: الحافظة واسطة من وسائل الكمال وبدونها لا يستطيع امرؤ أن يقلد شيئاً وينسج على منواله. وقال لاكورنيل الشاعر: يجب لمن يعتمد الكذب أن يكون ذا ذاكرة جيدة. وهذا مثل قولهم إذا كنت كذوباً كم ذكوراً. وقال بيكنه الأديب السويسري (1799— 1875): لقد كان للحافظة شأن مهم جداً عند الناس في العصور الأولى أكثر مما صار لها في القرون اللاحقة. كانت الحافظة قبل اختراع الكتابة هي التي تتولى خاصة نقل التقاليد الوطنية والدينية وعامة القوانين والعادات والشعر ولذلك كانت هذه

الحاسة التي قلما نخفل الآن بأمرها عند قدماء الآريين مشابهة للفكر نفسه. اختلفت مذاهب الفلاسفة فيما إذا كانت الحافظة حاسة قائمة بذاتها أو فيما إذا كان لكل حاسة فينا ذاكرة معينة ومعظم الحكماء وعلما النفس على أن الحافظة حاسة مستقلة عن بقية حواس الإنسان ولا يكاد أحد يدرك كيف تعي الحافظة الأرقام والأعداد وتحفظ العبارات والمفردات وتحكم اللغات واللهجات وتردد الألحان والأصوات. ويقول علماء النفس أن الشروط النفسية اللازمة لجودة الذهن متوقفة على جودة تركيب أنسجة الدماغ وحسن تغذية هذه الأنسجة. والتعب والشيخوخة من العوامل المؤثرة في ضعف الحافظة لأنهما ملازمان لضعف تغذية هذه الأنسجة ولذلك قالوا درجة الحافظة لا تختلف بحسب الأشخاص بل تختلف في الشخص الواحد في أدوار مختلفة من حياته وإذا صرفنا النظر عن الآفات العضوية التي تضر بها فمن هناك أيضاً أحوالاً أقل منها تزيد ما ضعفاً إلى ضعفها مثل اضطرابات المعدة وسوء الهضم والشقيقة فإن جميع هذه العوارض على الجسم تغيرها تغيراً محسوساً.

ولتركيب الدماغ وحالته تأثير ظاهر في الحافظة فقد ذكر بلين الطبيعى الروماني أن رجلاً نسي حتى رسائله بعد أن أصيب بشجة في رأسه. وزعم اليايا كليمان السادس أن حافظته قوية قوة عجيبة عقب أن أصيب برضة شديدة في دماغه. وكيفما كانت الحال فللتمرين يد طويل في تخصيص الحافظة بشيء معين فالممثلون تقوى فيهم الملكة الحافظة الشفاهية وهي من اللوازم لهم في صناعتهم ورجال الشرطة تقوى فيهم الحافظة في تذكر صور الأشخاص وليس البشر كلهم سواء في الحفظ والاستظهار فمنهم من يحفظون الأشكال الهندسية وهم اللذين خلقوا رياضيين بالفطرة ومنهم من برزقون حافظه قوية في الأنغام كالموسيقين. وغيرهم في ذلك من

الناس من يذكرون الكلمات بسرعة غريبة ومن الأطفال من تقرأ لهم بصوت عال عدة صفحات فيستظهرونها في الحال ويتلوها على مسامعك لأول مرة. وتذكر الألفاظ خاصة يمتاز بها الأولاد في العادة أكثر من الكبار في السن ممن لا تكون قويت فيهم حاسة التفكير فيحفظون الكلمات التي يسمعونها على أيسر وجد بدون أن يفهمونها والسبب في سهولة الحفظ عليهم فقدان قوة التفكير فيهم وعندما يبدأ التفكير في معظم الناس تضعف الحافظة فيهم وقد تزول من بعضهم. والحافظة الشفاهية إذا كانت هي وحدها في الإنسان لا تكون له سبيلاً إلى التفكير ومن فقد الأولى فلا يأسف لحاله لأنه يستطيع بقوة التفكير أن يأتي بالجد من الأفكار ولكن الحافظة وحدها قد تكون من أكبر العوائق عن جودة التصور.

وبعد فإن للحافظة شأنًا عرقية الفكر الإنساني وبدونها يكون كل شيء عقيمًا لا ثمرة لأنها واسطة لبقاء الأفكار التي صدرت وأحسن ذريعة للحصول على أفكار جديدة ولم يعرف القانون الذي تسير عليه كما أن جوهرها لم يدرك الباحثون حقيقته وغاية ما عرف من أمرها أنها بالانتباه والتمرن وأن الكسل ابن الترف والكسل يجرح الحافظة أن لم نقل يقتلها.

ذكر التاريخ كثيرين من رباب الحافظة النادرة فمنهم في القديم ميثر يدانس الكبير ملك شمالي غربي آسيا الصغرى (123-63 ق. م) فقد كان يحكم على اثنين وعشرين أمة مختلفة ويخطب أمام كل منها بلغتها ويدعو كل واحد من جنده باسمه. وذكروا مثل ذلك عن قورش ملك الفرس وليموسنقلس وسيبيون الآسيوي والإمبراطور أدريان ويقال أن مزية الحافظة هيأت لآوتون الروماني تولى الملك. وتعلم ليموسنقلس اللغة الفارسية في سنة وكان ليس اللغوي الأديب البلجيكي

(1547-1606) يحفظ تاريخ ناسيت المؤرخ اللاتيني بألفاظه حرفاً بحرف وقد قال أنه يرضى أن يقف جلال ويده سيف على رأسه وهو يتلو هذا التاريخ فإذا أخل بحرف واحد يضرب عنقه.

وكان لرينودي بون حافظة سعيدة يذكر جميع الأبيات اللاتينية واليونانية التي قرأها في صباه ويتلو صفحات برمتها من ديوان هوميروس وإن كان مضى عليه أربعون سنة وهو لم ينظر فيه نظرة واحدة. وكان هوج دونو الفقيه المشهور في القرن السادس عشر يستظهر القوانين المعروفة في عصره بالحرف الواحد. وحفظ يوسف مكاليجة الأديب (1540-1609) الإلياذة والوديسية في أحد وعشرين يوماً. ومن ألفت ما يروى في باب الحافظة أن أحد الفلاحين في فرنسا جاء إلى باريس يقصد صاحباً قديماً له قد استلف منه خمسة فرنكات منذ خمسة عشرة وطلب إليه أن ينقله ماله فتركه وعاد فدفع إليه ليرة واحدة وخمسة فرنكات وقال له: هذا يا صاح قد كنت نلت وأنا في المدرسة ليرة جائزة عن حافظتي فرأيتك أحد مني ذاكرة وأنت أحق بهذه الجائزة مني.

ليس في الدنيا خير محض فقد اخترعت الطباعة منذ نحو خمسمائة سنة فعم نفعها أهل الأرض كافة ولكن ما عتمت أن نتج عنها بعض شر إذ أصبح الناس يعتمدون على الكتب في جماع علومهم وآدابهم بعد أن كان جل اعتمادهم على محفوظاتهم ومخطوطاتهم. والغالب أن الاعتماد على الحافظة والحفاظ كان في الإسلام على أشد قبل تدوين الكتب وتأليف الرسائل والمصنفات ولما بلغ بعض الأنمة تدوين الكتب أسفوا وعدوه من دواعي تفهقر العلم وانقطاع سند الرواية وما زالت الحال ترتقي بعض الشيء في بعض الأعوام ثم يزهد في الحفظ حتى انتشرت الطباعة في بلادنا

بانتشار الصناعات الفكرية فأمسى الناس يستندون إلى السطور بدل الصدور والقراطيس والأسفار بدل الحفظ والاستظهار فضعفت بهذا الضعف الحافظة وان قويت المفكرة وقلت الرواية وان لم تقل الدراية.

انقطع سند الحفظ إلا في بعض ما لا يسع الأمة جهله من القرآن وعلومه فأخذ بعضهم يفتاتون على من عرفوا قديماً بسعة محفوظهم ويزيفون ولكن بدون برهان ما رواه طائفة الراويين من أبناء الأذكىاء الحافظين. ولو صح الاعتماد على إلقاء الكلام على عواهنه في هذا الباب إذا لسقط التاريخ وارتفعت الثقة من كل خير حتى من مجيء الرسم وحروب الملوك وذنور الشعوب والمدن وما إليها. وما أشبه من يكذب بادىء الرأي بلا دليل قاطع بمن يؤثر الهدم على البناء. وشتان بين المخرب والمعمار والتلف والمخلف والمفسد والمصلح.

ما عُتبت أمة بتدين دينها وحفظه ولغتها وضوابطها عناية المسلمين بدينهم ولغتهم فكان أمر حفظة الكتاب العزيز ما اشتهر في كل مصر وعصر ولا يزال في البلاد اثر من أثر تلك العناية. أما الأحاديث فقد عنوا بما قديماً وجمعوا أشتاقاً وبنوا صالحها من موضوعها وضعيفها من قويتها مما يدركه كل من كان له إلمام بالمراجعة ونظر في كتب القوم.

لم يكن العلم في القرون الأولى للإسلام بالإرث ولا بالمظاهر ولا بالوساطات والشفاعات بل كان بالاستحقاق وكذا القرائح سير على قوانين بقيود وروابط ولذلك لم يكن ينال لقب حافظ من لم يحفظ ألفوا من الأحاديث بأسانيدها فقد كانوا يطلقون اسم المسند على من يروي الحديث بإسناده سواء كان عنده علم به أو ليس له إلا مجرد رواية ويطلقون اسم انحدث على من كان أرفع منه والعالم على من يعلم

المتن والإسناد جميعاً والفقهاء عني من يعرف المتن ولا يعرف الإسناد والحافظ عني من يعرف الإسناد ولا يعرف المتن والراوي عني من يعرف المتن ولا يعرف الإسناد. وكان السلف يظنقون اخذت والحافظ بمعنى. واخذت من عرف الإسناد والعنل وأسماء الرجال والعالمي والنازل وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون وسمع الكتب الستة ومسند أحمد بن حنبل وسنن البيهقي ومعجم الطبراني هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثة هذا أقل درجاته فإذا سمع ما ذكر وكتب الطبايق ودار عني الشيوخ وتكنم في العنل والوفيات والمسانيد كان في أول درجات اخذت. وكان السلف يستمعون فيقرون فيرحلون ويحفظون فيعلمون قال بعضهم.

إن الذي يروي ولكنه ... يجهل ما يروي وما يكتب

كصخرة تتبع أمواها ... تسقي الأراضي وهي لا تشرب

سأل تقي الدين السبكي الحافظ جمال الدين المزي عن حد الحفظ الذي إذا انتهى إليه الرجل الذي جاز له أن يطلق عليه الحافظ قال: يرجع إلى أهل العرف فقلت وأين أهل العرف قليل جداً قال: أقل ما يكون الرجال الذين يعرفهم ويعرف تراجمهم وأحوالهم وينداهم أكثر من الذين لا يعرفهم ليكون الحكم للغالب فقلت له: هذا عزيز في هذا الرمان أدركت أن أحداً كذلك فقال: ما رأينا مثل الشيخ شرف الدين الدمياطي ثم قال: وابن دقيق العيد كان له في هذا مشاركة جيدة. قال فتح الدين بن سيد الناس وأما اخذت في عصرنا فهو من اشتغل في الحديث رواية ودراية وجمع رواية واطلع عني كثير من الرواة والروايات في عصره وتميز في ذلك حتى عرف فيه خطه واشتهر فيه ضبطه فإن توسع في ذلك حتى عرف شيوخه وشيخ شيوخه طبقة بعد طبقة بحيث يكون ما يعرفه من عنل طبقته أكثر مما يجهده منها فهذا هو الحافظ

وأما ما يحكى عن بعض المتقدمين من قولهم كنا لا نعد صاحب حديث من لم يكتب
عشرين ألف حديث في الإملاء فذلك بحسب أزمتهم.
وقال أبو زرعة الرازي: كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث قيل له وما
يدريك قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب: احفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتي
ألف حديث غير صحيح. وقال الحاكم في المدخل: كان الواحد من الحفاظ يحفظ
خمسمائة ألف حديث سمعت أبا جعفر الرازي يقول سمعت أبا عبد الله بن وارة يقول
كنت عند اسحق ابن إبراهيم بنيسابور فقال رجل من أهل العراق: سمعت أحمد بن
حنبل يقول صح من الحديث سبعمائة ألف وكسروا هذا الفتى يعني أبا زرعة قد
حفظ سبعمائة ألف حديث. قال البيهقي: أراد ما صح من الأحاديث وأقوال
الصحابة والتابعين وقال غيره: سئل أبو زرعة عن رجل حلف بالطلاق أن أبا زرعة
يحفظ مائتي ألف حديث هل يحنث قال لا. ثم قال: احفظ مائة ألف حديث كما
يحفظ الإنسان سورة قل هو الله أحد وفي المذاكرة ثلثمائة ألف حديث وقال أبو بكر
محمد بن عمر الرازي الحافظ: كان أبو زرعة يحفظ سبعمائة ألف حديث وكان يحفظ
مائة وأربعين ألفاً في التفسير والقرآن. وكان اسحق بن راهوية يملئ سبعين ألف
حديث حفظاً وأسند ابن عدي عن ابن شبرمة عن الشعبي قال: ما كتبت سواداً في
بيضاء إلى يومي هذا ولا حدثني رجل بحديث قط إلا حفظته فحدثت بهذا الحديث
اسحق بن راهوية فقال: تعجب من هذا قلت: نعم قال: ما كنت لأسمع شيئاً إلا
حفظته وكأني أنظر إلى سبعين ألف حديث أو قال أكثر من سبعين حديث في كتيبي.
واسند عن أبي داود الخفاف قال: سمعت اسحق ابن راهوية يقول: كأني أنظر إلى مائة
ألف حديث في كتيبي وثلاثين ألفاً أسردها. وأسند الخطيب عن محمد بن يحيى بن

خالد قال: سمعت اسحق بن راهوية يقول: أعرف مكان مكان مائة ألف حديث كآني أنظر إليها وأحفظ سبعين ألف حديث عن ظهر قلبي. حفظ أربعة آلاف حديث ضرورة وقال عبد الله أحمد بن حنبل قال أبي الداود بن عمرو الضبي وأنا أسمع: كان يحدثكم إسماعيل بن عباس هذه الأحاديث يحفظه قال: نعم ما رأيت معه متاباً قط قال له: لقد كان حافظاً كم كان يحفظ قال شيئاً كثيراً قال: كان يحفظ عشرة آلاف وعشرة آلاف وعشرة آلاف فقد كان أبي هذا كان مثل وكيع. وقال يزيد بن هرون احفظ خمسة وعشرين ألف حديث وقال الآجري: كان عبد الله بن معاذ العنبري يحفظ عشرة آلاف حديث.

قال السبكي لم تر عيناى احفظ من أبي الحجاج المزني وأبي عبد الله الذهبي والوالد وغالب ظني أن المزني يفوقهما في العلل والمتون والجرح والتعديل مع مشاركة كل منهم لصاحبه فيما يتميز عليه المشاركة البالغة سمعت شيخنا الذهبي يقول: ما رأيت أحداً في هذا الشأن حفظ من الأمم أبي الحجاج المزني وبلغني عنه أنه قال ما رأيت أحفظ من أربعة: ابن دقيق العيد والدمياطي وابن تسمية والمزني فالأول أعرفهم بالعلل وفقه الحديث والثاني بالأنسب والثالث بالمتون والرابع بأسماء الرجال. وكان الدمياطي يقول: ما رأى شيخنا أحفظ من زكي الدين عبد العظيم وما رأى الزكي أحفظ من أبي الحسن علي بن المفضل ولا رأى ابن المفضل أحفظ من الحافظ عبد الغني ولا رأى عبد الغني أحفظ من أبي موسى المديني إلا أن يكون الحافظ أبا القاسم بن عساكر ولا رأى ابن عساكر والمديني أحفظ من أبي القاسم إسماعيل بن محمد التيمي ولا رأى إسماعيل أحفظ من أبي الفاضل محمد بن طاهر المقدسي ولا رأى ابن طاهر أحفظ من أبي نصر بن ماکولا ولا رأى ابن ماکولا أحفظ من أبين بكر

الخطيب ولا رأى الخطيب أحفظ من أبي نعيم وأبو نعيم ما لرأى أحفظ من الدارقطني وأبي عبد الله بن مندة ومعهما الحكم مكان ابن مندة يقول: ما رأيت أحفظ من أبي اسحق بن حمزة الأصهباني وقال ابن حمزة: ما رأيت أحفظ من أبي جعفر أحمد بن يحيى بن زهير القشيري وقال: ما رأيت أحفظ من أبي زرعة الرازي وأما الدارقطني فما رأى أحفظ من نفسه وأما الحاكم فما رأى أحفظ من الدارقطني بل وكان يقول الحاكم ما رأيت أحفظ من أبي علي النيسابوري ومن أبي بكر ابن الجعابي وما رأى الثلاثة أحفظ من أبي العباس بن عقدة ولا رأى أبو علي النيسابوري مثل النسائي ولا رأى النسائي مثل اسحق بن راهويه ولا أرى أبو زرعة أحفظ من أبي بكر أبي شيبة وما رأى أبو علي النيسابوري مثل ابن خزيمة وما رأى ابن خزيمة مثل أبي عبد الله البخاري ولا رأى البخاري فيما ذكر مثل علي بن المديني أولاً رأى أيضاً أبو زرعة والبخاري وأبو حاتم وأبو داود مثل أحمد بن حنبل ولا مثل يحيى بن معين وابن راهويه ولا

رأى أحمد ورفاقه مثل يحيى بن سعيد القطان ولا أرى هو مثل سفيان ومالك وشعبة ولا رأوا مثل أيوب السخيتاني نعم ولا رأى مالك مثل الزهري ولا رأى الزهري مثل ابن المسيب ولا رأى ابن المسيب أحفظ من أبي هريرة ولا رأى أيوب مثل ابن سيرين ولا رأى مثل أبي هريرة نعم ولا رأى الثوري مثل منصور ولا رأى منصور مثل إبراهيم ولا رأى إبراهيم مثل علقمة ولا رأى علقمة كابن مسعود.

هذا كان مبلغ القوم في حفظ الحديث وروايته على كثرة التشابه فيه وتوفر الأسانيد والرواة بحيث لو أراد أحد هذا العهد أن يحفظ شيئاً مما كانوا يحفظونه لاختار

استظهار اللغة الصينية واستسلها أكثر وذلك لضعف الحافظة من هذا المعنى وانقطاع
سند هذه العلوم الجليلة إلا قليلاً.

كان الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون من أعيان حفاظ الإسلام قال ابن عساكر أنه
أحفظ شيخ لقبه وشيوخ ابن عساكر زهاء ألف ومائتي شيخ وكان الفقيه أعلم الدين
القمي يحفظ ما يسمعه من مرة واحدة. وكان الشافعي من أحفظ أهل دهره قضى
عشرين سنة في تعلم الأدب والتاريخ وقال ما أردت بهذا إلا الاستعانة على الفقه
وبروى أنه نظر في دريد صاحب المقصورة من علماء اللغة كان آية من آيات الله في
اتساع صدره للرواية تقرأ عليه دواوين العرب فيسارع إلى إملانها من محفوظه.

وقيل أن أحمد بن حنبل إمام المحدثين كان يحفظ ألف ألف حديث. قال سعيد بن جبير
من أعلام التابعين قرأت القرآن في ركعة البيت الحرام وقال اسمعيل بن عبد الملك
كان سعيد بن جبير يؤمننا في شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود وليلة
بقراءة زيد بن ثابت وليلة بقراءة غيره هكذا أبداً ولا عجب وهو الذي قال فيه أحمد
بن حنبل قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا هو مفتقر إلى
علمه.

وكان علي الرازي يقول من فهم الكتاب (يعني الجامع الصغير لخمدة) فهو من
أصحابنا ومن حفظه كان أحفظ أصحابنا وأن المتقدمين من مشايخنا كانوا لا يقلدون
أحداً القضاء حتى يمنحوه فإن حفظه قلده القضاء وإلا أمره بالحفظ. وذكر
صاحب نفع الطيب أنه كان خارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفقه
مقلص تكن الفتيا في الأحكام والشرائع له وكان لا يجعل القالض منهم على رأسه
إلا من حفظ الموطأ وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث والمدونة.

كان بديع الزمان الهمداني يحفظ خمسين بيتاً بسماع واحد ويؤديها من أولها إلى آخرها وينظر في كتاب نظراً خفيفاً ويحفظ أوراقاً ويؤديها من أولها إلى آخرها وينظر الأربعة والخمسة الأوراق من كتاب لم يعرفه ولم يرد نظرة واحدة خفيفة ثم يهدها عن ظهر قلبه هذا ويسردها سرداً وهذا حاله في الكتب الواردة وغيرها. وكان أبو ريش أحمد بن إبراهيم من رواة الأدب يحفظ خمسة آلاف ورقة لغة وعشرين ألف بيت شعر إلا أن أبو محمد المافروخي بزَّ عليه لأنهما اجتمعا أول ما نشاهدا بالبصرة فتذاكرا أشعار الجاهلية وكان أبو محمد يذكر القصيدة ليأتي أبو ريش على عيونها فيقول أبو محمد إلا أن تمدها من أولها إلى آخرها فينشد معه ويتشادان إلى آخرها ثم أتى أبو محمد بعدة قصائد لم يتمكن أبو ريش أن يأتي بها إلى آخرها وفعل ذلك في أكثر من مائة قصيدة حدثني بذلك من حضر ذلك المجلس معهما — قاله ياقوت في معجم الأدباء.

وكان الحفظ في كل فن شائعاً بين أهل الأدب وطلاب العلم على اختلاف ضروبه عند العرب على نحو ما يتضح من تصفح سير رجالهم ولو لم يكن استناد المؤلفين في الأغلب الأعلى ما في لوح محفوظهم لما تيسر لهم أن يؤلف أحدهم عشرات من المجلدات يعجز العالم اليوم عن نسخها وعن تصفحها.

فقد كان العرب قبل البعثة يروون قصائد شعرانهم وأغاني حدائقهم كما يؤخذ من اجتماعاتهم في سوق عكاظ ومربد البصرة ولم تكن بضاعتهم من ذلك كثيرة لأن أمراء الكلام لم ينغوا إلا في الإسلام بظهور نور النبوة وفصاحة الكتاب العزيز. ولقد كان الراوية والنسابة ينشد عشرات بل مئات من القصائد كما يحفظ أحدنا لها العهد الأبيات القليلة غير متعلم ولا متردد. خذ مثلاً لذلك حماد الرواية المتوفى سنة

155 فقد كان على قلة بضاعته من العربية يروي المئات من القصائد للجاهلين والمخضرمين كما يروي فاتحة الكتاب ويلد أشعار العرب وأيامهم وأنسابهم ولغاتهم كأنه يروي قصة وكان ملوك بني أمية يرجعون إليه في هذا المعنى ويحلونه منزلة عالية من الآجلة والإكرام روى الوليد ابن يزيد الأموي قال له يوماً وقد حضر مجلسه: بم استحققت هذا الاسم فقيل لك الراوية فقال: بأبي أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ثم أروي لأكثر منهم ممن تعرف أنك لا تعرفه ولا سمعت به ثم لا ينشدني أحد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم من المحدث فقال: ثم فكم مقدار ما تحفظ من الشعر قال: كثير ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام قال سأمتحك في هذا ثم أمره بالإنشاد فأنشد حتى ضجر الوليد ثم وكل به من استحلغه أن يصدقه عنه ويستوفى عليه فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة ألف درهم ونوادره كثيرة.

وكان الأصمعي المتوفى سنة 211 أو قبلها صاحب لغة ونحو وإماماً في أخبار العرب وملحهم وقرانهم قال عمر بن شبة: سمعت الأصمعي يقول: أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة وقال اسحق الموصلي: لم أرَ إلا الأصمعي يدعي شيئاً من العلم فيكون أحداً أعلم به منه وحضر يوماً عند الفضل بن الربيع هو وأبو عبيدة معمر بن المثنى فقال له: كم كتابك في الخيل فقال الأصمعي مجلد واحد فسأل أبا عبيدة عن كتابه فقال: خمسون مجلدة فقال له: قم إلى هذا الفرس وأمسك عضواً عضواً منه وسمه فقال: لست بيطاراً وإنما هذا شيء أخذته عن العرب فقال للأصمعي: قم وافعل أنت ذلك فقام الأصمعي وأمسك ناصيته وشرع يذكر عضواً عضواً ويضع يديه عليه وأنشد

من قالت العرب فيه إلى أن فرغ منه قال: أبو حمدون الطيب بن إسماعيل شهدت ابن أبي العتاهية وقد كتب عن أبي محمد اليزيدي قريباً من ألف جلد عن أبي عمرو بن العلاء خاصة ويكون ذلك نحو عشرة آلاف ورقة لأن تقدير الجلد عشر ورقات. قال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهم الخنساء وليلى فما ظنك بالرجال. قلت ولذلك جاء شعر أبي نواس أحسن شعر المولدين كما شهد له بذلك أصحاب الشأن في هذه الصناعة وفي مقدمتهم الجاحظ الذي فضل شعره على شعر العرب

العرباء قال اسمعيل بن نوبخت: ما رأيت قط أوسع علماً من أبي نواس ولا أحفظ منه مع قلة كتبه ولقد فتشنا منزله بعد موته فما وجدنا له إلا قمطراً فيه جزاز مشتمل على غريب ونحو.

قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب دخل أبو عمرو اسحق بن مراد الشيباني البادية ومعه دستجيتان من حبر فما خرج حتى أفناهما بكتب سماعه عن العرب وكان أبو عمرو علامة بأيام العرب جامعاً لأشعارها وبروي عن عمرو بن أبي عمر وقال: لما جمع أبي أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة وكان كما عمل منها قبيلة وأخرجها إلى الناس كتب مصحفاً بخطه ويحكى أنه أخذ عن الفضل الضبي ودواوين العرب وسمعا منه أبو حيان وابنه عمرو بن أبي عمرو وحكى أبو العباس قال كن مع أبي عمرو والشيباني من العلم والسماع أضعاف ما كان مع أبي عبيدة ولم يكن من أهل البصرة مثل أبي عبيدة في السماع والعلم قال سلمة: أملى الفراء كتبه كلها حفظاً لم يأخذ بيده نسخة إلا في كتابين ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة وكان مقدار الكتابين خمسين ورقة. ويقال أن الأصمعي كان يحفظ ثلث اللغة وكان الخليل يحفظ

نصف اللغة وكان أبو فيد يحفظ الثلثين وكان أبو مالك يحفظ اللغة كلها وكان الغالب على أبي مالك حفظ الغريب وال نوادر. وكان ابن الأعرابي أحفظ الناس للغات والأيام والأنساب وقال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب: قال لي ابن الأعرابي: أملت قبل أن تجيئني يا أحمد حمل حمل وقال ثعلب: انتهى علم اللغة والحفظ إلى ابن الأعرابي وقال ثعلب: سمعت ابن الأعرابي يقول في كلمة رواها الأصمعي سمعت من ألف إعرابي خلافاً ما قاله الأصمعي.

وكان قتادة عالماً محروماً وأجمع الناس في أشعار العرب وأنسابهم وقال أبو عبيدة: ما كنا نفقد في كل يوم راكباً من ناحية بني أمية ينيخ على باب قتادة فيسأله عن خبر أو نسب أو شعر وكان من أنسب الناس. وكان ابن الكشي النسابة واسع الرواية من أعلم النسب بالنسب وكان من الحفاظ المشاهير قال: حفظت ما لم يحفظه أحد ونسيت ما لم ينسه أحد. كان لي عم يعاتبني على حفظ القرآن فدخلت بيتاً وحلفت أن لا أخرج منه حتى أحفظ القرآن فحفظته في ثلاثة أيام وتصانيفه تزيد على مائة وخمسين تصنيفاً وتوفي سنة 204.

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارهم وأشعارهم قال الجاحظ: لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه ومع أن كان يلحن ويخطي: إذا قرأ القرآن وإذا أنش بيتاً لا يقيم وزنه وإذا تحدث أو قرأ لحن اعتماداً منه لذلك فقد صنف قرابة مائة مصنف وكان يرى رأي الخوارج ولذلك كثر الطاعنون في نسبه ومشربه ومذهبه وتوفي سنة 209.

كان أبو المحاسن الروماني المتوفى سنة 502 من رؤوس الأفاضل في أيامه يقول: لو احترقت كتب الشافعي لأملتها من خاطري. وقال أبو بكر النحوي: لما قد أحسن

بن سهل العراقي قال: أحب أن أجمع قوماً من أهل الأدب فأحضر أبا عبيدة والأصمعي ونصر ابن علي الجهضمي وحضرت معهم وأفضنا مرة في ذكر الحفاظ فذكرنا الزهري وقتادة ومردنا فالتفت أبو عبيدة فقال: مال الغرض أيها الأمير في ذكر من مضى وبالحضرة ههنا من يقول ما قرأ كتاباً قط فاحتاج إلى أن يعود فيه ولا دخل قلبه شيء فخرج عنه فالتفت الأصمعي وقال: إنما يريدني بهذا القول أيها الأمير والأمر في ذلك على ما حكى وأنا أقرب إليك قد نظر الأمير فيما نظر فيه من الرقاع — وكان نظر قبل أن يلتفت إليهم في رقاع بين يديه للناس في حاجاتهم فوقع عليها فكانت خمسين رقعة — وأنا أعيد ما فيها وما وقع به الأمير على رقعة رقعة قال فأمر وأحضرت الرقاع قال: الأصمعي سأل صاحب الرقعة الأولى كذا واسمه كذا فوقع له بكذا والرقعة الثانية والثالثة حتى مر في نيف وأربعين رقعة فالتفت إليه نصر بن علي فقال: أيها الرجل ابق على نفسك من العين فكف الأصمعي.

ومالي وتعداد الأسماء على هذا النحو فكتب القوم طافحة بما وإنما يكفي منا التمثيل والقليل يعني. ولقائل أن هذا القدر من الحفظ كان بعضه شائعاً في القرنين الأولين والقرون الثلاثة وقد بالغ فيه الرواة حتى اتصل بنا على هذه الصورة وما حجتي في نقض هذا إلا وقوع أمثال أمثاله في كتب أهل القرون المتأخرة مما تواطأ الثقات على نقله ونحروا في إثباته. ولقد كان الغرب في هذه الزمة كالشرق إذ قد حذا المغاربة في حضارتهم وعلومهم حذو المشاركة. فقد كان ابن عبدون أحد فحول شعراء الأندلس وكتابها متكثرأ من الحفظ. قال الوزير أبو بكر بن زهر فبينما أنا قاد في دهليز دارنا وعندني رجل شيخ أمرته أن يكتب لي كتاب الأغاني فجاء الناسخ بالكراريس التي كتبها فقلت له: أين الأصل الذي كتبت عنه لأقابل معك به قال: ما

أتيت به معي فبينما أنا معه في ذلك إذ دخل رجل بذ الهيئة عليه ثياب غليظة أكثرها
صوف وعلى رأسه عمامة قد لائها من غير إتقان وقال لي: يا بني استأذن لي على
الوزير أبي مروان فقلت له: هو ناتم هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف هملتين
على ذلك نزوة الصبا وما رأيت من خشونة هيئة الرجل ثم سكنت عني ساعة وقال:
ما هذا الكتاب الذي بيديكم فقلت له: ما سؤالك عنه فقال: أحب أن أعرف اسمه
فإني كنت أعرف أسماء الكتب. فقلت هو كتاب الأغاني فقال: إلى أين بلغ الكاتب
منه قلت: بلغ موضع كذا وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك
على قلبه فقال: وما لكاتبك لا يكتب قلت: طبعت الأصل منه الذي يكتب من
لأعارض به هذه الأوراق فقال: لم أجيء به معي فقال: يا بني خذ كرايسك
وعارض قلت: بماذا وأين الأصل قال: كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صياي قال:
فتبسمت من قوله فلما رأى تبسمي قال يا بني أمسك عليّ قال: فأمسكت عليه
وجعل يقرأ فو الله إن أخطأ واواً ولا فاء قرأ هكذا نحواً من كراسين ثم أخذت له في
وسط السفر وآخره فرأيت حفظه في ذلك كله سواء فاشتد عجبتي وقمت مسرعاً
حتى دخلت على أبي فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل فقام كما هو من فوره وكان
ملتفياً برداء ليس عليه قميص وخرج حاسر الرأس حافي القدمين لا يرفق على نفسه
وأنا بين يديه ويقول: يا مولاي اعذرني فو الله ما أعلمني هذا الخلف إلا الساعة
وجعل يسبني والرجل يخفض عليه ويقول: ما عرفني وأبي يقول: هيه ما عرفك فما
عذره في حسن الأب. ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثنا طويلاً ثم خرج
الرجل وأبي بين يديه حالياً حتى بلغ الباب وأمر بدابته التي يركبها فأسرجت وحلف
عليه ليركبها ثم لا ترجع إليه أبداً فلما انفصل قلت لأبي: من هذا الرجل الذي

عظمته هذا العظيم قال لي: اسكت وبحك هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها في علم الأدب هذا أبو محمد عبد انجيد بن عبدون أيسر محفوظاته كتاب الأغاني — رواها المراكشي.

وروى أيضاً قصة تشبهها قال: أنه لزم أبا جعفر الحميري آخر من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس المتوفى سنة 610 نحواً من سنتين فما رأيت أروى لشعر قديم ولا حديث ولا أذكر بحكاية تتعلق بأدب أو مثل سائر أو بيت أو بيت نادر أو سجعاً مستحسنة من أدرك جملة من مشايخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب وأعانته على ذلك طول عمره وصدق محبته وإفراط شغفه بالعلم قال لي ولده عصام وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي الطيب قرنت عليّ أو أكثرها فألفيتها شديدة الصحة فقلت له: لقد كتبتها من أصل صحيح ونحزرت في نقلها فقال لي: ما يمكن أن يكون في الدنيا أصح من الأصل الذي كتبت منه فقلت له: أين وجدته قال هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا وكنا في المسجد في زاوية فقلت له: أين هو فقال لي: عن يمينك فعلمت أنه يريد الشيخ فقلت: ما على يميني إلا الأستاذ فقال لي: هو أصلي وبإملائه كتبت كان يملئ عليّ من حفظه فجعلت أتعجب فسمع الأستاذ حديثنا فالتفت إلينا وقال: فيم أنتم فأخبره ولده بالخبر فلما رأى تعجبي قال: بعيداً أن تفلحوا يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبي والله لقد أدركت أقواماً لا يعدون من حفظ كتاب سيويه حالظاً ولا يروونه مجتهداً.

ومن نظر فيما أثر عن الأندلسيين وحدهم من هذا القبيل يكتب أوراقاً كثيرة وكتبت قرأت في الاستقصا أن من جملة من غرق مع السلطان أبي الحسن لما قصد المغرب في البحر بأسطوله الغريق وكان مؤلفاً من نحو ستمائة قطعة مع من غرق من الفقهاء

والعلماء والكتاب والإشراف أبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي الذي أملى في مجلس درسه بمكناسة على حديث يا أبا عمير ما فعل النغير أربعمانه فائدة.
وقيل أن صدر الدين بن الوكيل ويعرف عند المصريين بابن الرجل من أنمة الشالعية حفظ المفصل في مائة يوم ويوم والمقامات الحزبية في خمسين يوماً وديوان المتنبي على ما قيل في جمعة واحدة.

وذكر القريزي عن حكايات أهل الأندلس في الحفظ أن الأديب الأوحى حافظ اشيلية بل الأندلس في عصره أبا المتوكل الهيثم بن أحمد بن أبي غالب كان أعجوبة دهره في الرواية لأشعار والأخبار قال ابن سعيد: أخبرني من أتق به أنه حضر معه ليلة عند أحد رؤساء اشيلية فجرى ذكر حفظه وكان ذلك في أول الليل فقال لهم: إن شئتم تخبروني أحببتكم فقالوا له: بسم الله إنا نريد أن نحدث عن تحقيق فقال اختاروا أي قالية شئتم لا أخرج عنها حتى تعجبوا فاختاروا القاف فابتدأ من أول الليل إلى أن طلع الفجر وهو ينشد وزن (أرق على أرق ومثلي يأرق) وسماه قد نام بعض وضج بعض وهو ما فارق قالية القاف وقال أبو عمران بن سعيد: دخلت عليه يوماً بدار الإشراف باشيلية وحوله أدباء ينظرون في كتب منها ديوان ذي الرمة فمد الهيثم يده إلى الديوان المذكورة فمنعه من أحد الأدباء فقال:

يا أبا عمران أوجب أن يمنعني وما يحفظ منه بيتاً وأنا أحفظه فأكذبت الجماعة فقال اسمعوني. وأمسكوه فابتدأ من أوله حتى قارب نصفه فأقسمنا عليه أن يكف وشهدنا له بالحفظ وكان آية في سرعة البديهة مشهوراً بذلك قال أبو الحسن ابن سعيد: عهدي به في اشيلية يملي على أحد الطلبة شعراً وعلى ثان موشحة وعلى ثالث زجلاً كل ذلك ارتجالاً.

لن ابن خلكان: كان أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المسندة والنسب ما لم أر قط من يحفظ مثله ويحفظ دون ذلك من علوم آخر منها اللغة والنحو والخرافات والسير والمغازي ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً مثل علم الجوارح والبيطرة وترف من الطب والنجوم والأشربة وغير ذلك. وذكر صاحب الصبح المنبي أن العلم الفرد في قوة الحافظة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. ولقد شرط الملك المعظم عيسى لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعة فحفظه لهذا السبب جماعة.

قال أبو عمر الظلمنكي دخلت مرسية فتشيت بي أهلها يسمعون عليّ الغريب المصنف فقلت انظروا من يقرأ لكم وأمسكت أنا كتابي فأتوني برجل أعمى يعرف بابن سيده (وهو صاحب المخصص في اللغة الذي طبع مؤخرًا) فقرأه عليّ من أوله إلى آخره فعجبت من حفظه. ولقد لازم ثعلب ابن الإعرابي فما رآه نظر في كتاب. وأخبار الأصمعي في الحفظ والرواية أشهر من أن تذكر وكذلك خلف الأهرم والكلمي وعبيد ودعلج. وكان أبو تمام لا يلحق في محفوظاته وقيل أن كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطع. قال أبو الحسن محمد بن عليّ العنوي كان المتنبّي يلازم الوراقين فأخبرني وزان كان يجلس إليه: قال ما رأيت أحفظ من هذا الفتى بن عبدان السقا (المتنبّي) قلت له: كيف قال اليوم كان عندي وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الأصمعي يكون نحواً من ثلاثين ورقة لبيعه فأخذه فنظر فيه طويلاً فقال له الرجل أريد بيعه وقد قطعني عن ذلك فإن كنت تريد حفظه فهذا يكون إن شاء الله تعالى بعد شهر قال فقال له ابن عبدان: فإن كنت قد حفظته في هذه المدة فمالي عليك قال: أهب لك الكتاب قال: فأخذته من يده فأقبل بهذه

علمي إلى آخره ثم استلمه فجعله في كفه وقام فتعلق به صاحبه طالباً بما له فقال ما إلى ذلك سبيل وقد وهبته لي قال: فمنعناه منه وقلنا: أنت شرطت علي نفسك هذا للغلام فتركه عليه. والأمثلة كثيرة في هذا الباب والله أعلم.

حماسة الخالدين

الخالديان أخوان شقيقان من أهل القرن الثالث كتب بعض المؤلفات ونسبت إليهما آداب وغرر ولم يكونا يفترقان في حال من الأحوال ولا تعرف في أدباء العرب شقيقين آخرين اتفقا على إخراج بنات أفكارهما في مجلد واحد كما اتفقا على الخروج من بطن واحد إلا أولئك الأدباء الأخوة المشهورون عند الفرنسيين باسم كونكور وبول وفيكتور مارغريت ورسني.

قال التعالي في اليتيمة: أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد ابنا هاشم الخالديان: أن هذان الساحران يفربان بما يجلبان ويبدعان فيما يصنفان وكان ما يجمعهما من أخوة الأدب مثل ما ينظمهما من أخوة النسب فهما في الموافقة والمساعدة يجيان بروح واحدة ويشتركان في قرض الشعر وينفردان ولا يكادان في الحضر والسفر يفترقان وكانا في التساوي والتشابك والتشاكل والتشارك كما قال أبو تمام:

رضيحي لبان شريك عنان ... عتيقي رهان حليفي صفاء

بل كما قال البحري

كالفرقدين إذا تأمل ناظر ... لم يعل موضع فرقد عن فرقد

بل كما قال أبو اسحق الصابي فيهما:

أرى الشاعرين الخالدين سيرا ... قصائد يفنى الدهر وهي تخلد

جواهر من إبتكار لفظ وعونه ... يقصر عنها راجز ومقصر

تنازع قوم فيهما وتناقضوا ... ومر جدال بينهم يتردد
 فطائفة قالت سعيد مقدم ... وطائفة قالت لم بل محمد
 وصاروا إلى حكمي فأصلحت بينهم ... وما قلت إلا بالتي هي أرشد
 هما في اجتماع الفضل زوج مؤلف ... ومعناهما من حيث يثبت مفرد
 كذا فرقدا الظلماء كلا ... علأ أشكلا هل ذاك أم ذاك أمجد
 فزوجهما ما مثله في اتفاه ... وفردهما بين الكواكب أوحد
 فقاموا على صلح وقال جمعهم ... رضينا وساوى فرقدا الأرض فرقد

وما أعدل هذه الحكومة من أي اسحق فما منهما إلا محسن ينظم في سلك الإبداع ما
 فاق وراق ويكائر بمحاسنه وبدانعه الأفراد من شعراء الشام والعراق وقد ذكرت ما
 شجر بينهما وبين السري في شأن المصالحة والمسارقة وما أقدم عليه من دس أحسن
 أشعارهما في شعر كشاجم وكان أفضل الشام والعراق إذ ذاك فرقتين إحداهما وهي
 في شق الرجحان تعصب عليه لهما لفضل ما رزقاه من قلوب الملوك والأكابر
 والأخرى تعصب له عليهما. ثم أورد صاحب التيمة من أشعارهما ما هو السحر
 الخلال وما اتفق لهما من التوارد مع السري أو التسارق في زهاء عشرين صفحة.
 وقد ظفرنا للخالدين بكتاتيبهما الحماسة أو الأشباه والنظائر فرأيناها جمع فأوعى من
 شعر الجاهليين واستشهد عليه بما أخذه عنهم المولدون أو زادوه عليهم من المعاني
 والتصورات قالاً في مقدمته:

الحمد لله بلا كيفية تقع بما الإحاطة عليه والأزلي بلا وقت تنسب الصفات إليه حمداً
 يورد من حليل نعمه وجزيل قسمه مشرباً عذباً ومسحياً رحياً وصلى الله على سيدنا
 محمد ما أورق شجر وأبوع ثمر وعلى الطاهرين من عترته وسلم تسليماً وبعد فسبح

الله لنا في مدتك وولقنا لما نثره من خدمتك لبناك بأشعار المحدثين كلفا وعن
القدماء والمخضرمين منحرفاً. وهذان الشريجان هما اللذان فتحا لمحدثين باب المعاني
فدخلوه ونجحوا لهم طريق الإبداع للمعاني فسلكوه أما زاد الله قدرك علواً ورفعة
وسموا قول الشاعر:

فهو قبل ميكاها بكيت صباية ... إليها شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا ... بكاهها فقلت الفضل للمتقدم

ومن أمثالهم السائرة ما ترك الأول للآخر شيئاً إلا أن أبا تمام لم يرض بهذا المثل حتى
قال يصف قصيدة له:

لا زلت من شكري في حلة ... لابسها ذو سلب فاخر

يقول من تفرع أسماعه ... كم ترك الأول للآخر

ومن المعنى الأول قول عنترة هل غادر الشعراء من متردم أي ما تركوا كلاماً لمتكلم
فإذا كان عنترة وهو في الجاهلية الجهلاء وما لهم من فصاحة الفصحاء يقول مثل هذا
القول لما ظنك بهذا العصر وقيله بمانتي سنة فلسنا بقولنا هذا أيدك الله نطعن على
المحدثين ولا نبخسهم تجويدهم ولطف نديقهم وطريف معانيهم وإصابة تشبيههم
وصحة استعاراتهم إلا إنا نعلم أن الأوائل من الشعراء رسموا رسوماً تبعها من بعدهم
وعول عليها من قفا أثرهم وقل شعر من أشعارهم يخلو من معان صحيحة وألفاظ
فصحية وتشبيهات مصيبة واستعارات عجيبة ونحن أطل الله في العز بفاك وكبت
بالذل أعداك نضمن رسالتنا هذه مختار ما وقع إلينا من أشعار الجاهلية ومن تبعهم من
المخضرمين ونجتنب أشعار المشاهير لكثرتها في أيدي الناس ولا نذكر منها إلا الشيء
اليسير ولا نخليها من غرر ما روينا للمحدثين ونذكر أشياء من النظائر إذا وردت

والاجازات إذا عنت وتكلم على المعاني المخترعة ولا نجتمع نظائر البيت والمتبعة في مكان واحد ولا المعنى المسروق في موضع بل نجعل ذلك في موضع ذكره وإن كنا نعلم أنك أدام الله تأييدك أعلم بما نحمله إليك ونعرضه منا عليك ومن أين لنا قرائح نتج ما لا تزال تربناه وتسلأنا عنه من دقيق المعاني وبعده في النوعين من دقة النظر ولطيف الفكر ما لا يتوهم أنه يطرد لسواك ولا يغن لغيرك وهو أنك أيد الله عزك قلت لنا من أين أخذ البحري قوله:

ركبنا القنا من بعد ما حملا القنا ... في عسكر متحامل في عسكر
فإن يكن عندنا فيه شيء من الاستحسان والتقريب فعرفنا أيدك الله أنه مأخوذ من قول أبي تمام:

رعته الفيافي بعد ما كان حقة ... رعاها وماء الروض ينهل ساكبه
ولا نعرف في النظر أدق من هذا ولا أطف إلا إنا نوفي الخدمة حقها بما نتكلفه من الاختيار والكلام على ما ذكرناه وبالله التوفيق.
هذه هي المقدمة ومنها تفهم العرض وتدرک صعوبة ما سلكه المؤلفان وما يحتاج إليه هذا البحث من بعد النظر وسعة الاطلاع ولقد تصفح الصفحات الكثيرة من هذا الكتاب فقرأ فيها أشعاراً لم تكن معهودة لنا لقله ما طبع من شعر العرب العرباء قالاً بعد المقدمة.

قال المهلهل بن ربيعة:

بكره قلوبنا يا آل بكر ... نغاديبكم بمرففة النصال
لها لون من الهامات جون ... وإن كانت تغادي بالصقال
ونبكي حين نذكر كم عليكم ... ونقتلكم كأننا لا نبالي

أبيات المهلهل هذه هي الأصل في هذا المعنى ومثله قول الحصين بن الحمام المري.
 نفلق هاما من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعنق وأظلما
 فأخذه بعضهم فقال

قومي هم قتلوا ميم أختي ... فإذا رميت أصابني سهمي
 ولئن عفوت لأعفون جلالا ... ولئن رميت لأوهنن عظامي
 وأخذه مالك بن مطرف السعدي فقال:

قتلنا بني الأعمام يوم أواردة ... وعز علينا أن نكون كذلكا
 هم أخرجونا يوم ذاك وجردوا ... علينا سيوفاً لم يكن بواتكا
 وأخذه حرب بن مسعر فقال:

ولما دعاني لم أجبه لأنني ... خشيت عليه وقعه من مصمم
 فلما أعاد الصوت لم أك عاجزاً ... ولا وكلاً في كل دهياء صيلم
 عظفت عليه المهر عطفة محرّج ... صؤول ومن لا يعشم الناس يعشم
 وأوجرته لدن الكعوب مقوماً ... وخر صريعاً لليدين وللقم
 وغادرته والدمع يجري لقتله ... وأوادجه تجري على النحر بالدم
 فأخذ هذا المعنى ديك الجن فقال في جارية كان يحبها فقتلها:

قمر أنا استخرجته من دجنة ... ليلتي وجلوته من خدره
 فقتلته وله عليّ كرامة ... ملء الحشا وله الفؤاد بأسره
 عهدي به ميتاً كأحسن نائم ... والحزن ينحر عيرتي في نحره
 وإلى المعنى الأول نظر أبو تمام فقال:

قد انثنى بالنايا في أسننه ... وقد أقام حياراكم على اللقم

جدلان من ظفر حران أن رجعت ... أظفاره منكم محضوبة بدم

ومن هذا المعنى أخذ البحري قوله:

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها ... تذكرت القربى ففاضت دموعها

وبيت البحري أظرف وأبدع من بيت المهلهل إلا أنه هو الذي أرشده إلى المعنى ودله عليه ومثله لقتال الكلابي:

فلما رأيت أنه غير منته ... أملت له كفي بلدن مقوم

فلما رأيت أنني قد قتلته ... ندمت عليه أي ساعة مندم

ولبعضهم:

أتني آية من أم عمرو ... فكدت أغص بالماء الفراح

لما أنسى رسالتها ولكن ... ذليل من بنوا بلا جناح

قول ذليل من بوء بلا جناح الأمثال الجياد المختارة.

وقال جران العود النميري ولا يعرف في نسيب الأعراب وغرهم أحسن ألقاها من

هذه القصيدة ولا أملح معاني والمختار منها قوله:

ذكرت الصبا فأملت العين نذرف ... وراجعك الشوق الذي كنت تعرف

وكان فزادي قد صحا ثم هاجه ... همام ورق بالمدينة تمف

فبت كأن العين أفنان سدره ... عليها سقيط من ندى الطل ينطف

أراقب لوحاً من سهيل كأنه ... إذا ما بدا من آخر الليل يطرف

فلا وجد إلا مثل يوم تلافحت ... بنا العيس والحادي يشل ويعطف

وفي الحى ميلاء الخمار كأنها ... مهاة بمجل من ظباء تعطف

تقول لنار العيس صعر من السرى ... فأخفافها بالجندل الصم تقذف

حمدت لنا حتى تمناك بعضنا ... وقلنا أخو جدّ عن المزل يصدف
 وفيك إذا لاقيتنا عجرفية ... مراراً وما نهوى الذي يتعجرف
 فموعدك الوادي الذي بين أهلنا ... وأملك حتى نسمع الديك يهتف
 وبكفيك آثار لنا حين تلتقي ... ذيول نعفيها بمن ومطرف
 فنصبح لم يشعر بنا غير أنه ... على كل حال يحلفون ويحلف
 فأقبلن يمشين الهويّنا قناديا ... قصار الخطا منهن راب ومزحف (؟)
 فلما هبطن السهل واحتلن حيلة ... ومن حيلة الإنسان ما يتخوف
 حملن جران العود حتى وضعنه ... بعلياء في أرجائها الجن تعرف
 فبتنا قعوداً والقلوب كأنما ... قطعاً شرع الإشراف مما تخوف
 علينا الندى طوراً وطوراً يرشنا ... رذاذ سرى من آخر الليل أوطف
 ينازعنا لذاً رخيماً كأنه ... عوابر من قطر حداهن صيف
 رقيق الحواشي لو تسمع رهاب ... يبطنان قولاً مثله ظل برجف
 ولما رأين الصبح بادرن ضوءه ... كمشي قطعاً البطحاء أو من أظف
 وما بنّ حتى قلن بالبيت إننا ... تراب وإن الأرض بالناس تحسف
 فأصبحن صرعى في الحجال كأنما ... سقاهن من ماء المدامة قرفف
 يبلغهن الحاج كل مكاتب ... طويل العصا أو مقعد يترحف
 رأى ورقاً بيضا فشد جزيمه ... لها فهو أمضى من سيل وألطف
 ولن يستهيم الخرد البيض كالدمى ... هدان ولا هلباجة الليل مقرف
 ولكن رقيق بالصبا متطوف ... خفيف لطيف سابغ الذيل أهيف
 يلم كإلام القطامي بالقطا ... وأسرع منه لمة حين يخطف

فأصبح في التقينا غدية ... سوار وخلخال وبرد مفوف

أما قوله:

فبت كأن العين أفنان سدره ... عليها سقيط من ندى الليل ينطف

لمن أحسن ما قيل في الدمع وأجوده وشبيه به قول الآخر

لعينك يوم البين أسرع وأكفا ... من الفنن الممطور وهو مروح

وقيل هذا البيت قد جوّد أيضاً وزاد على من تقدمه وأتى بعده وذلك أنه لم يرض أن

يكون دمعه مثل الفنن وهو الغصن الذي يقطر المطر على ورقه فهو يجري حتى قال

وهو مروح أراد أن الريح تحركه فهو لا يهدأ من القطر وليس بعد هذا نهاية في تحاور

الدمع وسرعته وقوله:

أراقب لوحاً من سهيل كأنه ... إذا ما بدا من آخر الليل بطرف

مليح التشبيه صحيح لأن من تأمله رآه كأنه عين نظرف وقوله يصف قولها له

وفيك إذا لاقتنا عجرفية ... مراراً وما غوى الذي يعجرف

يقال أن النساء يملن إلى من كان فيه دعابة وهو ولا يملن إلى غير ذلك فذكر جران

العود عنهن أنهن قلن له لست على ما وصف لنا لأن فيك عجرفية وقد وصفت لنا

بغيرها حتى تمنيناك وما نحب الذي يعجرف ويذكر أن كثيراً أنشد بعض نساء

الأشراف قوله:

وكنت إذا ما جنت أجملن مجلسي ... وأعرضن عنه هيبة لا تجهما

يحاذرن مني نبوة قد عرفنها ... قديماً فما يضحكن إلا تبسما

فقلت له يا ابن أبي جمعة أهدنا القول تدعى الغزل والله لا نال وصلنا وحظي بودنا
إلا من يجري معنا كما نريد ويجعل الغي إذا أردناك رشداً قم لعنك الله فقام منقطعاً
وإلى قولها نظر البحري فقال:

ولا يؤدي إلى الملاح هوى ... من لا يرى أن غيه رشد

وقوله:

ويكفيك آثار لنا حين تلتقي ... ذبول نعفيها بمن ومطرف
معنى مליح وقد اشترك فيه جماعة من الشعراء فأول ذلك أمرؤ القيس في قوله:
فلمت بما أمشي تجر وراءنا ... على أثرنا أذيال مرط مرجل

وقال ابن المعتز:

فلمت أفرش خدى في الطريق له ... ذلاً وأسحب أكماماً على الأثر

ولابن المعتز في هذا المعنى زيادة حسنة على من تقدمه وقوله:

فنصبح لم يسعربنا غير أنه ... على كل حال يحلفون ويحلف
كلام ظريف ومعنى مليح لأنه قال لا بد من قمة تلحقنا فنحلف أنا لم نفعل ويحلفون
أنا قد فعلنا وقوله:

فأقبلن يمشين الموبنا لها ديا ... تصار الخطا منهن راب ومرجف

من أحسن ما يكون في صفة المشي وقد أكثر الشعراء في هذا الباب فمن مليحه
قول بعضهم:

يمشين مشي قفا البطاح تادوا ... قب البطون رواجح الأكفال

وإنما شبهوا مشية المرأة بمشية القطة لأن فيها سرعة وتأيداً قال المنخل:

ودفعتنا وتدفعت ... مشي القطة إلى العدير

وللأعشى في المشي شيء حسن وأشياء يفرط فيها فمن الجيد قوله:
 غراءُ فرعاءُ مصقول عوارضها ... تمشي الهويتنا كما يمشي الوجي الوجلي
 كأن مشيتها من بيت جارها ... مر السحابة لا ريث ولا عجل
 وقد شبه بشار بن برد خفقان القلب بالكرة في تدورها وهو قوله:
 كأن فؤاده كرة تترى ... حذار البين إن نفع الحذار
 وهذا لعمرى تشبيه جيد ومعنى صحيح وقال آخر وهو غير هذا المعنى فجود
 كأن فؤادي في مخالب طائر ... إذا ذكرت ليلي يشد به قبضا
 هذا ذكر أن فؤاده إذا ذكرت عشيقته قبض عليه ولم يذكر أنه شديد الخفقان وهو
 يدخل في هذا المعنى أو يقاربه فجود وأحسن وزاد وأورد معنى ثانياً وهو قوله:
 من (767_757) غير مكتوبين

رجعا فسار أبو دلامة ظاهراً ... والمهر يجفل تحته أجملاً
 حتى إذا وافي الأمير وقام عن ... كئيب ترجل دونه إجملاً
 وغدا يقول وكان روح ضاحكاً ... إني كفيتك قرني الرنبالا
 وقتلته بالقول لا بمهندي ... والحرب أحرى أن تكون مقالا
 وأخذت في الميजा عليه موافقاً ... أن لا يعود ينزل الأبطالاً
 إن المواتف لا تزال بمسمع ... مني تقول إذا شكوت الحلالاً
 لا تينسن للزمان تنفس ... فأرقبه أن يتبدل الإبدالاً
 والدهر طاه سوف ينضج أهله ... بالحادثات يزيد لها إشعالاً
 إن الدهور وهن أمهر سابك ... سترد أضداد الوري أشكالاً
 حتى كأي بالطباع تبدلت ... غير الطباع وزلزلت زلزلاً

وكأنني بيني الملاحم أصبحوا ... لأبي دلامة كلهم أمثالا

معروف الرصافي

حكومة الشورى في المملكة العثمانية

من أدق المسائل وأعضلها مسألة توليته الملك واختيار الأصلح لحكم الناس بالعدل والعقل. مسألة شغل بما البشر في كل دور من أدوارهم فقصت ولا تزال تقضي في تأييد سلطة الملوك ملايين من الناس. على هذا كان الحال في حكومات العرب بعد الإسلامية في القرون الوسطى والحكومات الإفريقية في القرون الحديثة.

الناس بخير ما حافظ ملوكهم على النظام في الجملة فإذا استرسلوا في شهواتهم وأهوائهم واستهانوا بمن تولوا رقابهم فعاملوهم معاملة الأنعام التي يرثها الابن عن أبيه وينصرف فيها بما يشاء يفسد الأمر وتنتشر الفوضى ويتراجع العمران ويذعر السكان. سنة من سنن هذا الكون منذ قامت المجتمعات الأولى وما من شيء بدل الآن على زوالها من العالم كل الزوال.

لا بد للناس من طاعة زعيم يرجعون إليه ببعض أمور دنياهم ولو صورة فإذا استقام هذا الزعيم وسار بمشورة أهل الرأي من قومه استقامت شؤونهم مرامهم. وقد كان من الخلافة الإسلامية وهي تجمع بين السلطين الدينية والدنيوية أثر عظيم من الجري على هذه الطريقة بإشراك الخليفة أصحابه وسروات بلاده في حربه وسلمه وغنمه وغرمه إلا أن هذه الصورة من الحكم لم يطل عهدها كثيراً فانقلبت بعد زمن قليل إلى ملك عضوض بسعي معاوية بن أبي سفيان وغدا بتقلدهما صاحب القوة بل كل ابن يوصي له بما أبوه مهما كانت أخلاقه وكفاءته وسنه.